## ٢٦ - عزة الأمة وهوانها

٩/ ١٠/ ١٤١٨هـ

إنَّ الحَمْدَ لله.... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَقَد كانت حَياةُ النَّاسِ فِي الجاهِلِيَةِ حَياةَ بُؤسٍ وشَقاءٍ، وَكانَ الشِّركُ قَد ضَرَبَ أَطنابَهُ، فاتَّخَذَت كُلُّ قَبيلةٍ صَنَماً تَعكُفُ عَلَيهِ، فَكانَ الواحِدُ مِنهم لاَ يَتَحَرَّكُ يَمنَةً أَو يَسرَةً إلاَّ وَيَرجِعُ إلى صَنَمِهِ فَيستَقسِمُ عِندَهُ، وَلا يَعودُ مِن سَفَرٍ إلاَّ وَيَبدَأُ بِالتَّمَسُّحِ بِهِ، فَيَطوفُ بِهِ ويَلتَزِمُهُ! رَوَى البُخارِيُّ عَن أَبِي رَجاءٍ العُطارِدِيِّ رَحِمَهُ اُلله تَعالَى قَالَ: (كُنَّا نَعبُدُ الحَجَرَ، فَإذا وجَدنا حَجَراً أَخيَرَ مِنهُ أَلقَيناهُ وأَخَذنا الآخَرَ؛ فَإذا لَم نَجِد حَجَراً جَمَعنا حَثوةً مِن تُرابٍ ثُمَّ جِئنا بِالشَّاةِ فَحَلَبنا عَلَيه ثُمَّ طُفنا بِهِ).

وَقالَ الكَلبِيُّ: (كانَ الرَّجُلُ إذا سافَرَ فَنَزَلَ مَنزِلاً أَخَذَ أَربَعَةَ أحجارٍ فَنَظَرَ إلى أَحسَنِها فاتَّخَذَهُ رَبّاً، وجَعَلَ ثلاثاً أَثافِيَ لِقدرِهِ، وَإذا ارتَحَلَ تَرَكَهُ، وَكانُوا يُنكِرونَ البَعثَ والجَزاءَ {**وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً**}) [سورة الإسراء: ٩٨].

أَمَّا مِن ناحِيَةِ الأخلاقِ عِندَ الجاهِليينَ، فَكانَت فِيهِم أَدواءٌ وَأَمراضٌ مُتأَصِّلَةٌ فاشِيَةٌ، فَكانَ شُربُ الخَمرِ واسِعَ الشُّيوعِ، شَديدَ الرُّسوخِ فِيهِم، تَحَدَّثَ عَنها شُعراؤُهُم فِي أَندِيَتِهِم وتَفاخَروا بِها، بَل وَشَغَلت جانِباً كَبيراً مِن شِعرِهِم وتارِيخِهِم وأَدَبِهِم، وكَثُرَت أَسماؤُها وصِفاتُها فِي لُغَتِهِم.

أَمَّا الرِّبا، فَقَد كانَ مُتَفَشِّياً فِيهِم، فَكانوا يَتَعاطَوْنَهُ ويُجحِفُونَ فِيهِ، وَيَبلُغونَ فِيهِ حَدَّ الغُلُوِّ والقَسوَةِ، قَالَ الإمامُ الطَّبريُّ رَحِمَهُ اُلله تَعالَى: (كانَ الرِّبا فِي الجاهِلِيَّةِ فِي التَّضعيفِ وَفِي السِّنِينِ، يَكونُ لِلرَّجُلِ فَضلُ دَينٍ فَيأتيهِ إذا حَلَّ الأَجَلُ فَيَقولُ لَهُ: تَقضِينِي أو تَزيدُ فِي السِّنِّ. فإن كانَ عِندَهُ شَيءٌ يَقضِيهِ قَضَى، وإلاَّ حَوَّلَهُ إلى السِّنِّ التِي فَوقَ ذَلِكَ، فإن كَانَت ابنَةُ مَخاضٍ جَعَلَها ابنَةَ لَبونٍ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ حُقَّةً، ثُمَّ جَذَعَةً، ثُمَّ رَباعِيّاً، وهَكذا فِي العَينِ، إن كانَت مائةً جَعلَها فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مائَتَينِ، ثُمَّ ثلاثَ مِئَةٍ، وكُلَّما زادَ أَربَى).

وأَمَّا كَراهَةُ البَناتِ عِندَهُم، فَقَد بَلَغت غايَتَها، ورُفِعَت رايَتُها، وكانَت مَذاهِبُهُم مُختَلِفَةً فِي ذَلِكَ؛ فَمِنهُم مَن كانَ يَئِدُ البَناتَ لِمَزيدِ الغَيرَةِ ومَخافَةِ لحوقِ العارِ بِهِم مِن أَجلِهِنَّ، ومِنهُم مَن كانَ يَئِدُ مِنَ البَناتِ مَن كانَت مُصابَةً بِعاهَةٍ، تَشاؤُماً مِنهم بِتِلكَ الصِّفَةِ.

وكانوا يَكرَهُونَ البِشارَةَ بِالمَولودِ إذا كانَت أُنثَى {**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ**} [سورة النحل: ٥٨، ٥٩] فَكانُوا يَقتُلُونَ البَناتَ بِطُرُقٍ شَتَّى، وَقَد حَكَوْا عَن أَنفُسِهِم فِي ذَلِكَ مُبكِياتٍ، فَكانَ بَعضُهُم يُلقِيها مِن شاهِقٍ، وبَعضُهُم يَكونُ مُسافِراً فَلا يَعودُ إلاَّ وَقَد عَقِلَت ابنَتُهُ فيُلقيها فِي بِئرٍ. فَبِئسَ ما كانُوا يَصنَعونَ!

وكانتِ المَرأَةُ عِندَهُم مَحرومَةً مِنَ المِيراثِ، ويُزَوِّجونَها مَن يَشاؤُونَ، ويُحَرِّمُونَ عَلَيها مِنَ الطَّعامِ مَا يَشاؤونَ {**وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا**} [سورة الأنعام: ١٣٩].

وَأَمَّا القِمارُ: فَكانَ مَفخَرةً مِن مَفاخِرِهِم، وكانَ عدَمُ المُشارَكَةِ فِي مَجلِسِ القِمارِ يُعَدُّ عاراً، فَكانَ الرَّجُلُ يَخسَرُ مالَهُ فِي لَحَظاتٍ يَسيرَةٍ، قَالَ قَتادَةُ: (كانَ الرَّجُلُ فِي الجاهِلِيَّةِ يُقامِرُ عَلى أَهلِهِ ومالِهِ، ويَقعُدُ حَزيناً سَليباً، يَنظُرُ إِلى مالِهِ فِي يَدِ غَيرِهِ، فَكانَ يُوَرِّثُ بَينَهُم عَداوَةً وبُغضاً).

وَلَم يَكُنِ الزِّنا بَعيداً عَنهُم، فَكانَ مِنَ العاداتِ عِندَ بعضِهِم أن يَتَّخِذَ الرَّجُلُ خَليلاتٍ، ويتَّخِذَ النِّساءُ أَخِلاَّءَ بِدونِ عَقدٍ، وَكانُوا يُكرِهونَ بعضَ النِّساءِ عَلى الزِّنا، قَالَ ابنُ عَبَّاس رَضِيَ اُلله عَنهُما: (كانُوا فِي الجاهِلِيَّةِ يُكرِهونَ إِماءَهُم عَلى الزِّنا، يَأخُذونَ أُجورَهُم).

أَمَّا العَصَبِيَّةُ القَبَلِيَّةُ، فَحَدِّث وَلا حَرجَ! فَكانَت فِي المُجتَمَعِ الجاهِلِيِّ طَبَقاتٌ وبُيوتٌ تَرى لِنَفسِها فَضلاً وامتِيازاً عَلى غَيرِها، فَتَتَرَفَّعُ عَلى النَّاسِ وَلاَ تُشارِكُهُم فِي عاداتٍ كَثيرَةٍ، حتَّى فِي بعضِ مَناسِكِ الحَجِّ؛ فَلا تَقِفُ بِعَرَفاتَ، وتَتَقدَّمُ عَلى النَّاسِ فِي الإِفاضَةِ.

وَكانتِ الحَربُ مِمَّا طُبِعَت عَلَيهِ طَبيعَتُهُم حتَّى صارَت مَسلاةً لَهُم ومَلهَىً، فَقالَ قائِلُهُم:

وَأَحياناً عَلى بَكرٍ أَخينا إِذا مَا لَم نَجِد إِلاَّ أَخانَا

وَهانَت عَلَيهِمُ الحَربُ وإِراقَةُ الدِّماءِ حتَّى كانَت تُثيرُها حادِثَةٌ لَيسَت بِذاتِ خَطَرٍ، فَقَد وَقَعَتِ الحَربُ بَينَ بَكرٍ وتَغلِبَ ابنَي وائِلٍ، ومَكَثَت أَربَعينَ سَنَةً، وسَبَبُها قَتلُ ناقَةٍ!

وحَربُ داحِسَ والغَبراءَ، ما كانَ سَبَبُها إِلاَّ أَنَّ داحِساً سَبَقَ الغَبراءَ، فَكانَت نَتيجَةُ ذَلِكَ حَرباً ضَروساً دامَت أَعواماً طَويلَةً.

**وَبِالجُملَةِ:**

كانَت حَياتُهُم شَقاءً وبَلاءً، إن سَرَقَ الشَّريفُ تَرَكُوهُ، وإن سَرَقَ الضَّعيفُ عاقَبوهُ، القَوِيُّ يَأكُلُ الضَّعيفَ، والغَنِيُّ يَنهَبُ الفَقيرَ، والنَّسيبُ يتَرَفَّعُ عَلى الوَضيعِ، فَكانَت حَياتُهُم شَبَكَةً مَحبوكَةً مِن تُراثٍ وثاراتٍ وعارٍ ووَيلاتٍ.

ومَع هَذا الجَهلِ والظُّلمِ، وعَلى حينِ فَترَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، بَدَأَ شُعاعٌ يَتَراءَى فِي بَطنِ مَكَّةَ، وبَدأَ نُورُهُ يَزحَفُ رُوَيداً رُوَيداً، مُؤذِناً بِأَنَّ اَلله تَعالَى قَد أَرسَلَ أَعظَمَ رُسُلَهُ، وأَطيَبَ خَلقِهِ، وأتقاهُم لِرَبِّهِ، بعَثَ اُلله مُحَمَّداً ﷺ، فَهَدى بِهِ إِلى أَقوَمِ الطُّرُقِ، وأَوضَحِ السُّبُلِ، وافتَرَضَ عَلى أَهلِ الأَرضِ طاعَتَهُ.

فَكانَ ﷺ دَعوةَ أَبيهِ إِبراهِيمَ عَليهِ السَّلامُ حِينَ قَالَ: {**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**} [سورة البقرة: ١٢٩].

وكانَ بُشرَى أَخيهِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ حِينَ قَالَ: {يَا بنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اِلله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [سورة الصف: ٦].

وَكانَ رُؤيا أُمِّهِ حِينَ رأَت فِي المَنامِ قَبلَ وِلادَتِهِ أَنَّهُ سَيَخرُجُ مِنها نورٌ أَضاءَت لَهُ قُصورُ الشَّامِ.

لَقَد تَحَقَّقَت فِيه هَذِهِ الصِّفاتُ الثَّلاثُ، فَكانَ ﷺ إجابَةً لِدَعوةِ إبراهِيمَ الخَليلِ، ومِصداقاً لِبِشارَةِ المَسيحِ، وتَعبيراً لِرُؤيا أُمِّهِ، فَصَلَواتُ اِلله وسَلامُهُ عَلَيهِ، فَلَقَد جَعلَهُ اُلله رَحمَةً لِلعالَمينَ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [سورة الأنبياء: ١٠٧] استَنارَت بِهِ الأَرضُ بعدَ ظُلمَتِها، واهتَدَت بِهِ البَشَرِيَّةُ بعدَ حَيْرَتِها، فأَعادَ ﷺ لِلحَنِيفِيَّةِ السَّمحَةِ (مِلَّةِ إبراهِيمَ) صَفاءَها، وأماطَ عَنها ما عَلِقَ بِها مِن أَوضارِ الجاهِلِيَّةِ وضَلالاتِها، وَجَمَعَ اُلله بِهِ الأُمَّةَ بعدَ شَتاتِها، فأَمَرَهُم بِالمَعروفِ ونَهاهُم عَنِ المُنكَرِ، وأَحلَّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وحَرَّمَ عَلَيهِمُ الخَبائِثَ، وَوَضَعَ عَنهُم إِصرَهُم وَالأَغلالَ التي كانَت عَلَيهِم، فَمَن اتَّبَعَ النُّورَ الذِي جاءَ بِهِ أَفلَحَ ونَجا، ومَن أَعرَضَ عَنهُ ضَلَّ وغَوى {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٧].

قامَ ﷺ يَدعُو إِلى سَبيلِ اِلله، وَبَدَأَ فِي تَرسيخِ العَقيدَةِ، فَلَمَّا أَدرَكَتِ الجاهِلِيَّةُ مَغزاهُ، وعَرَفَت مُرادَهُ، قامَت قِيامَتُها، وَرُوِّعَ شَملُها، وأَجلَبَت عَلَيه بِخَيلِها وَرَجِلِها، وَرَكِبِها وَرِكابِها، وحَدِّها وحَديدِها، فَحاوَلُوا فِي بادِئِ الأَمرِ استِمالَتَهُ إِلَيهِم، وأَغرَوْهُ بِالمَنصِبِ والمالِ والنِّساءِ، وطَرَقُوا كُلَّ الأَبوابِ، وسَلَكُوا شَتَّى الطُّرُقِ فِي مُحاوَلَةِ إرجاعِهِ وَإِقناعِهِ عَن دَعوَتِهِ {وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [سورة القلم: ٩] ولَكِن هَيهاتَ هَيهاتَ {قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [سورة الزمر: ٦٤] ومَعَ ذَلِكَ لَم تَفتُرِ الجاهِلِيَّةُ، ودافعَت دِفاعَ المُستَميتِ عَن عَقائِدِها ومبادِئِها وعاداتِها، وكانوا يَرجِعونَ الكَرَّةَ تِلوَ الكَرَّةِ، فَكانَ جوابُهُ مَرَّةً: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [سورة الزمر: ١١-١٥].

وكَانَ جَوابُهُ مَرَّةً: {حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي اذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُواْ إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} [سورة فصلت: ١-٦].

أدرَكَتِ الجاهِلِيَّةُ حَقيقَةَ هَذهِ الدَّعوةِ، فَأخَذَت تَدعُو إلى عَقيدَتِها، واتَّجَهوا نَحو كُلِّ صَوبٍ وَحَدَبٍ {وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاْصْبِرُواْ عَلَى الِهَتِكُمْ إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ* مَا سَمِعْنَا بِهَـذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَـذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ} [سورة ص: ٦، ٧] وَرَمُوهُ بِالكِهانَةِ والجُنونِ {فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} [سورة الطور: ٢٩، ٣٠].

وتارَةً قَالُوا: تَقوَّلَهُ، {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ} [سورة الطور: ٣٣، ٣٤] وتارَةً قالُوا: إفكٌ افتَراهُ، {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ اخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [سورة الفرقان: ٤، ٥].

وهَكَذا... كُلَّما اعتَرَضُوا عَلَيهِ دَحَضَ حُجَّتَهُم، وأَبطَلَ مَقالَتَهُم {وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} [سورة الفرقان: ٣٣].

وهَكَذا... تَحَمَّلَ ﷺ ما أَصابَهُ فِي سَبيلِ دَعوةِ رَبِّهِ مِن طَردٍ وضَربٍ، وهَمزٍ ولَمزٍ، وَاللهُ تَعالَى يَحُوطُهُ ويَرعاهُ ويُثَبِّتُهُ {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [سورة الحجر: ٩٧-٩٩]، {فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً} [سورة المعارج: ٥-٧]، {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} [سورة النمل: ٧٠]، {وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} [سورة الإسراء: ٧٤].

فَثَبَّتَهُ اللهُ وهَيَّأَ لَهُ أَصحاباً فَدَوْهُ بِأَنفُسِهِم وأُمَّهاتِهِم وَآبائِهِم ودُرِّياتِهِم وَأَموالِهِم {رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ} [سورة الأحزاب: ٢٣]، {رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَـاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ} [سورة النور: ٣٧].

رِجالٌ كانُوا ضُلَّالاً فِي الجاهِلِيَّةِ، غَسَلَهُمُ الإيمانُ ونَقَّاهُم وهَذَّبَهُم، فَكانُوا أتقِياءَ بَرَرَةً، تَسودُهُم رُوحُ المَوَدَّةِ والإخاءِ، يَشُدُّ بَعضُهُم بَعضاً كَالبُنيانِ المَرصُوصِ، لَم يَتَخاذَلُوا عَن نُصرَتِهِ وتَأييدِهِ {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } [سورة الفتح: ٢٩].

وبَعدَ ما أَتَمَّ اللهُ رِسالَتَهُ وشَرعَ دِينَهُ، قَبَضَ اللهُ رُوحَ نَبِيِّهِ بَعدَ أَن أَدّى الأَمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ، فَصَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ، وجَزاهُ عَنَّا خَيرَ ما جَزَى نَبِيّاً عَن أُمَّتِهِ.

تُوُفِيَّ النَّبِيُّ ﷺ وقَد أَقامَ -بِفَضلِ اِلله تَعَالَى- دَولَةً إِسلاَمِيَّةً حَقَّةً تُقيمُ حُدودَ اِلله، فَتَردَعُ الظَّالِمَ، وتُنصِفُ المَظلُومَ، وتُحارِبُ أَدرانَ الجاهِلِيَّةِ وَأَرجاسَها، فَهابَتها الفُرسُ والرومُ أَعظَمُ النَّاسِ قُوَّةً وأَكثَرُهُم عُدَّةً فِي تِلكَ الحِقبَةِ مِنَ الزَّمَنِ.

فَنَسأَلُكَ اللَّهُمَّ أَن تَجعَلَنا مِن أَنصارِ دينِكَ وأَتباعِ نَبِيِّكَ ﷺ، وأَن تَحشُرَنا تَحتَ لِوائِهِ، وأَن تُوردَنا حَوضَهُ.

## الخطبة الثانية

الحَمْدُ لِله...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

لَكِنَّ فاجِعَةَ مَوتِ النَّبِيِّ ﷺ، قَد أَقَضَّت كِيانَ الأُمَّةِ، فَتَحَرَّكَ ضُعَفاءُ النُّفوسِ وَبَثُّوا الشائِعاتِ، وانقَلَبَ مَنِ انقَلَبَ عَلى عَقِبَيهِ، وأَصبَحَ المُسلِمونَ كَما قَالَ عُروَةُ بنُ الزُّبَيرِ: (كَالغَنَمِ فِي اللَّيلَةِ المَطيرَةِ الشَّاتِيَةِ؛ لِفَقدِ نَبِيِّهِم وَقِلَّةِ عَدَدِهِم وكَثرةِ عَدُوِّهِم).

وَلَكِنَّ اَلله سَلَّمَ، وحَفِظَ هَذا الدِّينَ كَما وَعَدَ، فَثَبَّتَ اُلله الثُّلَّةَ الصَّادِقَةَ المُخلِصَةَ، وعَلى رَأسِهِم صِدِّيقُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبو بَكرٍ رَضِيَ اُلله تَعالَى عَنهُ، خَليفَةُ رَسُولِ اِلله ﷺ، وصاحِبُهُ فِي الغارِ، وأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيهِ، فَهُو الذِي قَالَ آنذاكَ: (مَن كانَ يَعبُدُ مُحَمَّداً فَإِنَّ مُحَمَّداً قَد ماتَ، ومَن كانَ يَعبُدُ اَلله فإِنَّ اَلله حَيٌّ لاَ يَموتُ).

وَهُو الذِي صاحَ فِي وَجهِ عُمَرَ حِينَ مُنِعَتِ الزَّكاةُ، قَالَ لَهُ: (مَهْ يا عُمَرُ، رَجَوتُ نُصرَتَكَ وجِئتَنِي بِخُذلانِكَ! أَجَبَّارٌ فِي الجاهِلِيَّةِ وَخَوَّارٌ فِي الإِسْلامِ؟! مَاذا عَسَيتَ أَن أتأَلَّفَهُم؟ بِسِحرٍ يُفتَعَلُ أَم بِشِعرٍ يُفتَرى! هَيهاتَ هَيهاتَ، مَضَى رَسُولُ اِلله ﷺ وانقَطَعَ الوَحيُ، فَوَاِلله لأُجاهِدَنَّهُم مَا استَمسَكَ السَّيفُ فِي يَدِي، فَوَاِلله لأُقاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، واِلله لَو مَنَعُونِي عِقالَ بَعيرٍ كانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلى رَسُولِ اِلله ﷺ لَقاتَلتُهُم عَلَيهِ).

وهُوَ الذِي قَالَ فِي ثَورَةِ الفِتْنِ واستِعارِها: (أَينقُصُ الدِّينُ وأَنا حَيٌّ؟!).

وهَكَذا استَطاعَ الصِّدِّيقُ -بَعدَ تَوفيقِ اِلله- أَن يَتغلَّبَ عَلى الثَّورَاتِ وَالفِتَنِ، وَانتَصَرَ عَلى المُرتَدِّينَ ومَانِعِي الزَّكاةِ ومُدَّعِي النُّبُوَّةِ، فَرَجَعَت لِلمُسلِمينَ عِزَّتُهُم وَوحدَتُهُم، ورَجَعت لِلخِلافَةِ هَيبَتُها وسُلطانُها، وتَوَسَّعَت رُقعَةُ الدَّولَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي عَهدِهِ رَضِيَ اُلله تَعالَى عَنه، ثُمَّ زادَت اتِّساعاً وَقُوَّةً فِي عَهدِ الفارُوقِ عُمَرَ رَضِيَ اُلله تَعالَى عَنه، وهَكَذا ضَرَبَت تِلكَ الدولةُ المُوَحِّدَةُ أَطنابَها، وفَرَضَت سَيطَرَتَها عَلى مَن حَولَها.

لَكِن مَع ذَلِكَ لَم يَفتُر أَهلُ الشَّرِّ عَن شَرِّهِم، فَما زَالوا يَكيدُونَ لِلإِسْلامِ وَأَهلِهِ حَتَّى أَدمَوا جُروحاً طالَ شِفاؤُها وسِقامُها، ولَكِنَّ اَلله تَعالَى تَكَفَّلَ بِحِفظِ هَذا الدِّينِ.

ولَعَلَّ مِنَ الفِتَنِ: فِتنَةُ القَولِ بِخَلقِ القُرآنِ، تِلكَ الفِتنَةُ العَقَدِيَّةُ الخَطيرَةُ التِي عَمَّت وطَمَّت فِي القاصِي والدَّانِي، فَرَفَعَ لَها الإِمامُ أَحمَدُ رَأسَهُ وَثَبَّتَهُ اُلله عَلى الحَقِّ حَتَّى أَظهَرَهُ اُلله.

ثُمَّ وَقَعَتِ الفِتنَةُ، وفَتَكَ النَّصارَى بِالمُسلِمينَ، فَقَيَّضَ اُلله القائِدَ المُجاهِدَ صَلاحَ الدِّينِ، فَكانَ النَّصرُ المُبينُ فِي حِطِّينَ.

ثُمَّ وَقَعَتِ الفِتنَةُ الهَوجاءُ فِتنَةُ التَّتارِ، فَاستَحَلُّوا بَغدادَ، وعاثُوا فِي الأَرضِ فَساداً، فَأَصبَحَت عاصِمَةُ الخِلافَةِ أَثراً بعدَ عَينٍ.

وهَكَذا كُلَّما ابتَعَدَ المُسلِمونَ عَن دِينِهِم سَلَّطَ اُلله عَلَيهِم عَدُوَّهُم مِن حَيثُ يَحتَسِبونَ ومِن حَيثُ لا يَحتَسِبونَ {وَمَا ظَلَمَهُمُ الله وَلـكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة العنكبوت: ١١٧].

**إخوَةَ الإِسْلامِ:**

كانَ لِسُقوطِ بغدادَ (عاصِمَةِ الخِلافَةِ العَبَّاسِيَّةِ) دَوِيٌّ عَظيمٌ فِي نُفُوسِ المُسلِمينَ، ولَقَد وصَفَ ابنُ كَثيرٍ وغَيرُهُ مِنَ المُؤَرِّخينَ تِلكَ المَآسِي التِي حَصَلَت فِي أَثناءِ سُقوطِها، فَذَكَر ما يَندَى لَهُ الجَبينُ، ويَتَفَطَّرُ لَهُ القَلبُ.

وبعدَ ذَلِكَ بَدَأَ المُسلِمونَ يَستَجمِعونَ قُواهُم ويُوحِّدونَ صُفوفَهُم، ولَكِنَّ العَدُوَّ لَم يَنَم، بَل كانَ يَتَرَبَّصُ بِهِمُ الدَّوائِرَ، فَهَيَّأَ اُلله لِلمُسلِمينَ رَجُلاً أَرَّخَ المُؤَرِّخونَ بِزَمانِهِ، إِنَّهُ شَيخُ الإِسلامِ أَبو العَبَّاسِ أحمَدُ بنُ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى، فَجاهَدَ بِلِسانِهِ وقَلَمِهِ ويَدِهِ، وأَثَّرَ فِي عَزيمَةِ المُسلِمينَ وأَلهَبَ حَماسَهُم فِي المَعرَكَةِ المَشهورَةِ مَعَ التَّتارِ (مَعرَكَةِ شَقحَبَ)، فَهَزَمَ اُلله التَّتارَ شَرَّ هَزيمَةٍ، فاعتَزَّ المُسلِمونَ وَقَوِيَت شَوكَتُهُم.

وكانَ لِعُلَماءِ الإِسْلامِ دَورٌ عَظيمٌ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ فِي تَوطيدِ أَركانِ الدِّينِ، وكانَت كَلِمَتُهُم مَسمُوعَةً تَقَعُ فِي نُفوسِ المُسلِمينَ أَبلَغَ مَوقِعٍ.

**مَعاشِرَ المُسلِمينَ:**

وبعدَ ما بَدَأَ المُسلِمونَ فِي التَّراخِي، وانغَمَسَ أَكثَرُهُم فِي حَياةِ اللَّهوِ، وقَعَتِ الفادِحَةُ العُظمَى والمُصيبَةُ الكُبرى، فِي العامِ السَّابِعِ والتِّسعينَ بَعدَ المائةِ الثَّامِنَةِ (٨٩٧هـ)، تِلكَ المُصيبَةُ التِي غَيَّرَت مَجرَى التَّاريخِ، إِنَّهَا مَأساةُ سُقوطِ الأَندَلُسِ، وَصمَةُ عارٍ فِي جَبينِ المُسلِمينَ، بِلادٌ شاسِعَةٌ ظَلَّت ثَمانِيَةَ قُرونٍ مِنَ الزَّمَنِ تَحتَ سُلطَةِ المُسلِمينَ، وفِي طَرفَةِ عَينٍ تَتَحَوَّلُ إِلى بِلادٍ نَصرانِيَّةٍ، وَالمُسلِمونَ يُهانُونَ ويُعَذَّبُونَ ويُستَعبَدُونَ.

بِالأَمسِ كانُـوا مُلوكاً فِي مَنـازِلِهِمُ وَاليَومَ هُم فِـي بِلادِ الكُفـرِ عُبدَانُ

وبَعدَ ما استَولَى النَّصارَى عَلى الأَندَلُسِ نَكَثُوا أَيمانَهُم، وقَطَعُوا عُهودَهُم، فَأَذاقُوا المُسلِمينَ أَلوانَ العَذابِ، ولَقَد تَفَنَّنَت مَحاكِمُ التَّفتِيشِ فِي ذَلِكَ {وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام: ١٣٢].

وَمِمَّا ذَكَرَهُ بعضُ المُؤَرِّخينَ فِي ذَلِكَ الوقتِ: (أَنَّ الحاكِمَ النَّصرانِيَّ فَرَضَ عَلى المُسلِمينَ المَغارِمَ الثقيلَةَ، وقَطَعَ الأَذانَ، وأَمَرَهُم بِالخُروجِ مِن غِرناطَةَ إِلى الأَرباضِ والقُرى.

فَخَرَجُوا أَذِلَّةً صاغِـرينَ، ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ دَعاهُـم إِلى التَنَصُّرِ وأَكرَهَهُم عَلَيهِ، فَدَخلُوا فِيه كُرهاً، وصارَت الأَندَلُسُ كُلُّها دارَ كُفرٍ، وَلَم يَبقَ مَن يَجهَرُ بِكَلِمَةِ التَّوحيدِ والأَذانِ، وجُعِلَت فِي المَساجِدِ والمَآذِنِ النَّواقِيسُ والصُّلبانُ، بعدَ ذِكرِ اِلله وتِلاوَةِ القُرآنِ، فَإِنَّا لِلّه وإِنَّا إِلَيهِ راجِعُونَ، لاَ رادَّ لِما قَضَاهُ اُلله المَلِكُ الدَّيَّانُ) اهـ كَلامُ المُؤَرِّخِ.

ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ واصَلَ الكَفَرَةُ كَيدَهُم حتَّى أَسقَطُوا الخِلافَةَ، فَحَقَّقُوا بُغيَتَهُم، ونالُوا مُرادَهُم.

وَلَو استُطرِدَ فِي ذِكرِ أَحوالِ المُسلِمينَ لَطالَ المَقامُ، ولَعلَّ ما تَقَدَّمَ يَكفِي.

**مَعاشِرَ المُسلِمينَ:**

لا يَعنِي هَذا أَنَّ انتِصاراتِ المُسلِمينَ قَليلَةٌ، بَل كَثيرَةٌ ومَشهورَةٌ، وما أَمرُ بَدرٍ واليَرموكِ وَالقادِسِيَّةِ والقُسطَنطينِيَّةِ وغَيرِها عَنَّا بِبَعيدٍ، وهَذا هُوَ الأَصلُ، أَنَّ النَّصرَ لِلمُسلِمينَ دائِماً وأَبداً، فِي كُلِّ مَكانٍ وزَمانٍ؛ لأَنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ {**إِن تَنصُرُواْ اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**} [سورة محمد: ٧].

لكِن لِيَعلَمَ المُسلِمونَ جَميعاً أَنَّهُم إذا ابتَعَدوا عَن دِينِهِم فَلَن تَقومَ لَهُم قائِمَةٌ، ولَن يَظهَرَ لَهُم أَمرٌ، وصَدَقَ الفارُوقُ رَضِيَ اللهُ عَنه حِينَ قَالَ: (نَحنُ قَومٌ أَعَزَّنا اللهُ بِالإِسْلامِ فَمَتى ابتَغَينا العِزَّةَ فِي غَيرِهِ أَذَلَّنا اللهُ).

فَالتَّمَسُّكُ بِالإِسْلامِ عَقيدَةً ومَنهَجاً هُوَ الفَلاحُ كُلُّهُ، وأَمَّا الاغتِرارُ بِالكَثرَةِ العَدَدِيَّةِ دُونَ النَّظَرِ إِلى تَحقِيقِ كَلِمَةِ التَّوحيدِ وتَوحُّدِ الكَلِمَةِ وتَكاتُفِ العَمَلِ، فَذَلِكَ خَلَلٌ عَظيمٌ فِي جَماعَةِ المُسلِمينَ.

**شاهِدُ المَقال:**

أَنَّ عامِلَ الكَثرَةِ مُجَرَّداً مِن لَوازِمِهِ لا يَكونُ مُبَشِّراً بِالخَيرِ، أَو مَدعاةً لِلتَّفاؤُلِ؛ بَل عَلى النَّقيضِ مِن ذَلِكَ، فَهُو مَدعاةٌ لاختِلافِ الوِحدَةِ وتَفَرُّقِ الكَلِمَةِ وَضَياعِ الجُهودِ.

يُؤَكِّدُ هَذا ويُقَرِّرُهُ قَولُ الصَّادِقِ المَصدوقِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَن تَداعَى عَلَيكُمُ الأُمَمُ مِن كُلِّ أُفُقٍ كَما تَداعَى الأَكَلَةُ إِلى قَصعَتِها**» قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَمِن قِلَّةٍ بِنا يَومَئِذٍ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلَكِنَّكُم غُثاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ، يُجعَلُ الوَهَنُ فِي قُلوبِكُم، ويُنزَعُ الرُّعبُ مِن قُلوبِ عَدُوِّكُم؛ لِحُبِّكُمُ الدُّنيا وكَراهِيَتِكُمُ المَوتَ**»[1] أَخرَجَهُ الإِمامُ أَحمَدُ وأَبو داودَ عَن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عَنه.

فَفِي هَذا الحَديثِ الصَّحيحِ الصَّريحِ بَيانٌ واضِحٌ بِأَنَّ الكَثرَةَ لَيسَت مُؤَشِّرَ خَيرٍ فِي كُلِّ الأَحوالِ، بَل قَد يَصحَبُها مِنَ الخِصالِ ما يَجعَلُها عامِلَ هَدمٍ وتَفريقٍ لِوِحدَةِ الأُمَّةِ، وَالنَّاظِرُ بِعَينِ الإِنصافِ والتَّجَرُّدِ مِنَ الهَوى يَرى فِي حالِ كَثيرٍ مِنَ المُسلِمينَ عَجَباً، ويَسمَعُ عَجباً، مِنَ اختِلافِ كَلِمَتِهِم، وتَنافُرِ قُلوبِهِم، وكَثرَةِ الشِّقاقِ بَينَهُم، فَنَتَجَ مِن ذَلِكَ: نَزعُ هَيبَتِهِم مِن صُدورِ عَدُوِّهِم، مِمَّا جَعَلَهُم لُقمَةً سائِغَةً فِي أَيدِي أعدائِهِم، يَمضُغونَها مَتى شاؤُوا وكَيفَ شاؤوا، ويَلفِظُونَها مَتى شاؤُوا وكَيفَ شاؤُوا.

وَإِذا أَرَدتَ مِصداقَ ذَلِكَ فَانظُر واقرَأ واسمَع عَن أَحوالِ المُسلِمينَ، فَحَدِّث عَن تَشريدِ العِبادِ وَلاَ حَرَجَ، وحَدِّث عَنِ انتِهاكِ الأَعراضِ وَلا حَرَجَ، وحَدِّث عَن سَلبِ البِلادِ وَلا حَرَجَ، بَلِ انظُر إِلى حَفنَةِ يَهودٍ، وَإِنَّهُم لَشِرذِمَةٌ قَليلونَ وَإِنَّهُم لَنا لغائِظونَ، فَلا يَبلغُ عَدَدُهُم عُشرَ مِعشارِ مَن حَولَهُم مِنَ المُسلِمينَ، لَكِن لِوَحدَةِ كَلِمَتِهِم، واجتِماعِ صَفِّهِم عَلى عِداءِ الإِسْلامِ فَرضُوا أَنفُسَهُم بِقُوَّةٍ وأَنَفَةٍ، فَلم يَرقُبوا فِي مُؤمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً.

وَبِكُلِّ حالٍ: لَو دَقَّقنا النَّظَرَ وبَحَثنا عَنِ السَّبَبِ الذِي أَوقَعَ بِالمُسلِمينَ تِلكَ المَصائِبَ، وبَحَثنا أَيضاً عَن سَبَبِ ذِلَّةِ المُسلِمينَ اليَومَ، وضَعفِ هَيبَتِهِم فِي بِلادِ الكُفرِ، أَهُوَ مِن قِلَّةِ تَرَواتٍ، أَم مِن قِلَّةِ رِجالٍ، أَم مِن قِلَّةِ أَراضٍ،

---

(1) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٤٢٩٧).

أَم مِن قِلَّةِ سِلاحٍ؟ كُلُّ هَذا فِي حَوزَتِهِم، وَلكِنَّ ذَلِكَ بَدَنٌ بِلا رُوحٍ، فَلا يُغنِي كُلُّ ذَلِكَ عَنِ اللُّجوءِ إِلى اللهِ تَعَالَى وتَغييرِ الأحوالِ والأَوضاعِ التِي لا تُرضِي اَللهَ إِلى ما يُرضِيهِ.

{إِنَّ اَللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [سورة الرعد: ١١]، {أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة آل عمران: ١٦٥].

إِذا صَدَقَ المُسلِمونَ مَعَ اِللهِ فِي جَميعِ شُؤونِهِم؛ آتاهُمُ اُللهُ العِزَّةَ والمَكانَةَ، كَما قَالَ: {وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [سورة المنافقون: ٨]، ولَقَد ذَكَرَ اُللهُ فِي مُحكَمِ تَنزيلِهِ أَنَّهُ لَن يَجعَلَ لِلكافِرينَ عَلى المُؤمِنينَ سَبيلاً، قَالَ جَلَّ شَأنُهُ: {وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [سورة النساء: ١٤١]، وَلَكِنَّ المُؤمِنينَ الذِينَ لَن يَكونَ لِكافِرٍ عَلَيهِم سَبيلٌ هُمُ الذِينَ وصَفَهُمُ اُللهُ بِقَولِهِ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [سورة الأنفال: ٢-٤].

وَقَالَ عَنهُم: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَـاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [سورة المؤمنون: ١-٦].

وَقَالَ عَنهُم: {وَعَدَ اُللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة النور: ٥٥].

وَإِنَّ مِن أَسبابِ العِزَّةِ والنَّصرِ أَيضاً: الأَمرَ بِالمَعروفِ والنَّهيَ عَنِ المُنكَرِ، فَلَقَد رَفَعَ اُللهُ شأنَ أُمَّةِ الإِسْلامِ حِينَما أَمَرَت بِالمَعروفِ ونَهَت عَنِ المُنكَرِ فَقالَ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} [سورة آل عمران: ١١٠].

وَلَقد ذَمَّ اُللهُ أُمَّةَ بَنِي إِسرائيلَ وَوَضَعَها بِسَبَبِ تَضييعِها لِذَلِكَ الأَمرِ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [سورة المائدة: ٧٨، ٧٩].

ولَن تَكونَ لِلمُسلِمينَ عِزَّةٌ وتَمكينٌ إِلاَّ إِذا اتَّصَفوا بِالصِّفاتِ التِي ذَكَرَها اُللهُ فِي كِتابِهِ عَنِ المُؤمِنينَ.

أَمَّا وَحالُ أَكثَرِ المُسلِمينَ كَما هِي عَلَيهِ الآن، فَإِنَّهُ نَذيرُ شَرٍّ وفِتنَةٍ، فَكَيفَ لِلمُسلِمينَ بِالعِزَّةِ والنَّصرِ وأَكثَرُ النَّاسِ لا يُوالُونَ وَلاَ يُعادُونَ فِي اِللهِ، ويَتَهاوَنُون بِالصَّلاةِ، وبعضُهُم لاَ يَعرِفُ المَساجِدَ؟ وكَيفَ نُريدُ العِزَّةَ والنَّصرَ، والتَّهَكُّمُ بِدينِ اِللهِ يُسمَعُ ويُقرَأُ ويُرى فِي كَثيرٍ مِن بِلادِ المُسلِمينَ؟!

يُريدُونَ المَجدَ وَالمَكانَةَ وكَثيرٌ مِن نِساءِ المُسلِمينَ سافِراتٌ مُتَبَرِّجاتٌ!

وتَرى مِنهُم المُجاهَرَةَ بِالمَعاصِي والمُنكَراتِ فِي بُيوتِهِم ومَراكِبِهِم.

وأَنَّى لَنا السُّؤدُدُ والقُوَّةُ وَبُيوتُ الرِّبا وقَنَواتُ الخَنا قَد عَمَّت كَثيراً مِن بِلادِ المُسلِمينَ؟!

فَإِلى اِللهِ المُشتَكى وإِلَيهِ المَلجَأُ، فَنَسأَلَكَ اللَّهُمَّ يا حَيُّ يا قَيُّومُ يا بَديعَ السَّمواتِ والأَرضِ أَن تُعِزَّ الإِسْلامَ وأَهلَهُ عَرَباً وعَجَماً، وأَن تُذِلَّ الكُفرَ وأَهلَهُ عَرَباً وعَجَماً، اللَّهُمَّ قَوِّ شَوكَةَ المُسلِمينَ، واجمَع كَلِمَتَهُم عَلى الحَقِّ، وقُوَّتَهُم عَلى نُصرَةِ الإِسْلامِ وَالمُسلِمينَ.

اللَّهُمَّ مَن أَرادَ المُسلِمينَ بِسُوءٍ فَتَسَبَّب فِي جَلبِ شَرٍّ لَهُم أَو مَنعِ خَيرٍ عَنهُم، اللَّهُمَّ امنَع عَنه بَرَكَتَك، وأَنزِل عَلَيهِ نِقمَتَكَ، وأَلقِ الرُّعبَ فِي قَلبِهِ وَقَلبِ مَن شايَعَهُ ومَن نَصَرَهُ وناصَرَهُ، اللَّهُمَّ قَوِّ شَوكَةَ دُعاةِ الخَيرِ مِن عُلَماءَ ودُعاةٍ وآمِرينَ بِالمَعروفِ وناهينَ عَنِ المُنكَرِ.

اللَّهُمَّ انصُر مَن نَصَرَهُم، واخذُل مَن خَذَلَهُم ومَكَرَ بِهِم.

اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاةَ أُمورِ المُسلِمينَ، وحَبِّب إِلَيهِم البِطانَةَ الصَّالِحَةَ الصَّادِقَةَ النَّاصِحَةَ التِي تَدُلُّهُم عَلى الخَيرِ وتُعينُهُم عَلَيهِ، وبَغِّض إِلَيهِم بِطانَةَ السُّوءِ، اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاتَنا إِلى خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرَةِ.

اللَّهُمَّ ثَبِّتِ المُجاهِدينَ فِي سَبيلِكَ فِي جِهادِهِم، وَالمُرابِطينَ فِي ثُغورِهِم، وأَقِرَّ أَعيُنَنا وأَعيُنَهُم بِالنَّصرِ، واشفِ صُدورَنا وأَذهِب غَيظَ قُلوبِنا.

اللَّهُمَّ احفَظ نِساءَ المُسلِمينَ، واجعَلهُنَّ مِمَّن يَنصُرنَ الإِسْلامَ بِتَربِيَتِهِنَّ لأَبنائِهِنَّ، وبِتَعَفُّفِهِنَّ عَن أَدرانِ الفَسادِ.

اللَّهُمَّ زِد هَذِهِ الصَّحوةَ خَيراً وبَرَكَةً، وارزُق أَهلَها الإِخلاصَ، واربِط عَلى قُلوبِهِم، وقِهِم الشُّرورَ والفِتَنَ ما ظَهَرَ مِنها وما بَطَنَ، إِنَّكَ سَميعٌ مُجيبٌ.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ دُعاءَنا، ويَسِّر أُمورَنا، وسُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمدِكَ.